أسطورة هندية

الفلاح والتاجر

للباندیت تاراشندروی

نقلها عن الألمانية

الأديب ابراهيم ابراهيم يوسف

يحكى أن تاجراً كان يسكن قرية من قرى الهند ؛ وفيما هو سائر ذات يوم فى طريقه إلى المدينة المجاورة ليستجلب بضائع جديدة لقيه فلاح يبغى هو الآخر الوصول إلى المدينة ليدفع إلى أحد أصحاب البنوك قسطاً من المال استحق عليه من دين كان قد اقترضه الجد الثانى له ، وأصبح القرض الذى كان مئة روبية عشرة أمثال ذلك بعد خمسين سنة

وكان الفلاح المسكين يسير فى طريقه مفكراً فيما عساه أن يفعل لحماية أرضه كيلا تقع فى يد ذلك المرابى

وسأله التاجر : إلى أين أنت ذاهب يا شاود هرجى ؟ أللمرابى لتدفع إليه قسطاً من المال ؟ وهلا فكرت فى طريقة تحفظ لك أرضك ؟

فأجاب الفلاح وكان مستغرقاً فى تفكيره المضنى : ياشاه جى ، ما ذا عساى أن أفعل ؟ لقد اقترض جدى الثانى مئة روبية فأصبحت الآن عشرة أمثالها — ألف روبية كاملاً ... أنعم النظر فى ذلك واعلم أنه ليس فى الوسع إبقاء هذا الدين العظيم حتى لو قدمت للمرابى الأرض التى أمتلكها

فأجاب التاجر : يا شاود هرجى . لم هذا التفكير السقيم وليس من طائل تحته ؟ إن الأمور تسير كما كتبت من قبل فى لوح القدر ، وإذا ماشغلنا أنفسنا بأمور مضنية كهذه فقد يمتد الطريق ويطول إلى ما لا نهاية . والأولى أن نتحدث فيما نتسلى به

— أنت على حق يا شاه جى ، فالقضاء لامفر منه وأروح للنفس أن نقص شيئاً من الطرائف والنوادر ، ولكن مالنا لا نضع شروطاً للحديث قبل البدء به

إذاً لا ينبغى ألا يشك أحدنا فى صحة قول الآخر ، وألا يعترض قوله ألبتة ، حتى حين يتراءى له أن كلامه غير محتمل الوقوع ، أو أنه مبالغ فيه كل المبالغة ؛ وعلى الذى يخالف هذه الشروط أن يدفع للآخر ألف روبية

فقال التاجر : أوافقك على هذا كله على أن يكون بدء الحديث لى :

وبدأ التاجر فقال : أنت أدرى بأن الجد الثانى لى كان محترماً موفور الرزق

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولما أن بدأ بالتاجرة رحل إلى الصين فى مئة سفينة ، فأصاب فيها مالا كثيراً ورجع إلى وطنه يرفل فى نعمة اليسر ويسبح فى محيط من الترف والنعيم

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وأحضر من تلك البلاد النائية ما عز

ونذر . وكان من بين هذه الأشياء صنم صغير من الذهب أمره عجيب ، فقد كان يكشف هذا الصنم عن مستقبل كل من يستكشفه مستقبله

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وكثر أصدقاء جدى الثانى الذين حضروا وتمكنوا بواسطة ذلك الصنم من أن يطلعوا على مستقبلهم . وفى ذات يوم حضر جدك الثانى لدى جدى الثانى ، وما لبث أن حادث الصنم فسأله:

من هم أذكى الناس فى العالم ؟

فأجاب الصنم : التجار

ثم سأله ثانية : ومن هم أغبى الناس فى العالم ؟

فكان الجواب : الفلاحون

ثم أعقب بسؤال آخر إذ قال : ومن سيكون أغبى شخص فى ذريتى ؟

فأجاب الصنم : شاود هرجى هو شيار سنج

وكان هذا اسم صاحبنا الفلاح الذى قال : لقد قلت صدقاً يا شاه جى

وكانت كلمات التاجر هذه تخز صدر الفلاح ، إلا أنه كظم غيظه وأسر فى نفسه معتزماً إذا ما جاء دوره ليقص حكايته أن يضطره إلى دفع الثمن غالياً

التاجر — وكثر الراغبون فى شراء الصنم ، ولكن أمره كان قد بلغ الملك ، فاستدعى جدى الثانى وطلب منه الصنم وكافأه على ذلك بأن جعله رئيس وزارته

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وبقى جدى الثانى فى منصبه هذا عهداً طويلاً وبلغت شهرته العالمين . ولما أن توفى ، خلفه جدى الأول ؛ ولكن الملك لم يكن ليرتاح إليه لشدة تعصبه لآرائه . وفى ذات مرة بلغ النقاش فى مسائل الدولة حداً قصيًا . وغضب الملك غضباً مستطيراً ، وما ذلك إلا لزلة جدى الذى كان يدافع عن آرائه السياسية ويدعم صحتها بالإثبات فى هدوء وتؤدة . فمنعه الملك من أن يتابع قوله ، ولكن جدى صرخ فى وجه الملك بصوت كالرعد أفهمه به أنه لا يفقه فى سياسة الدولة مقدار ذرة . وشعر الملك إذ ذاك بأنه أهين فى الصميم وأمر بأن يرمى جدى إلى فيل مفترس ليغتاله

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولكن ما إن رأى الفيل جدى حتى ذهبت عنه وحشيته ، وتقدم إلى جدى فى رهبة وخشوع ، ثم أحاطه بخرطومه ورفعه إلى ظهره

الفلاح — حسن جداً يا شاه جى ! حسن جداً

التاجر — ودهش الملك كثيراً لما وقع أمام بصره ، فانحنى قدام جدى وسأله المغفرة ورفعه إلى منصبه ومنحه لقب « من لا يجارى »

الفلاح — هذا بديع يا شاه جى ، بديع جداً

التاجر — ولما أن توفى جدى هذا عين أبى وزيراً خلفاً له ، إلا أنه فضل مهنة التجارة على منصب الوزارة . ومكنته فطنته ومقدرته التجارية من اكتساب مال وفير استعان به على أن يجتاب العالم من مشرقه إلى مغربه . ورأى فى تطوافه هذا أشياء عجيبة ، منها أنه لاحظ ذات يوم بعوضة تتردد على أذنه وتطن ؛ ولكى يبعد أبى عنه هذه الوافدة سأل البعوضة فى كثير من التأدب ألا تضايقه ؛ فقالت له البعوضة :

— يا أكمل وأشرف من رأيت من التجار ، لقد سررت بطبيعتك السمحة ، ولذا أود أن أسدى إليك جميلاً

وفتحت البعوضة فاها فإذا أبي يرى بين أحشائها قصراً جميلاً كل شيء فيه من الذهب الإبريز ، وقد جلست إلى إحدى نوافذه فتاة آية في الحسن والجمال ، ووقف أمام مدخل القصر فلاح يريد أن يختطف تلك الفتاة قوة واقتداراً ، فلم يطق أبي صبراً على تلك الحال ، وكان معروفاً بأنه أشجع من دب على الأرض ، فقفز فوراً إلى فم البعوضة ليحمي الفتاة من اغتصاب الفلاح

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ومرت به لحظة اشتمله فيها الظلام ، ولكن ما لبث أن رأى مرة أخرى القصر والفتاة والفلاح ، فانهال على الفلاح حتى صرعه ، ولاشك أن كل عضو من أعضاء الفلاح كان يتهشم لولا أنه أخذ يستحلف أبي أن يعفو عنه وهو ينتفض من كل جسمه . والآن أتعرف من كان ذلك الفلاح؟ إنه كان أباك بالذات . وما إن تم لأبي هذا الانتصار حتى تزوج من تلك الفتاة الحسناء التي اتضح أنها أميرة . وهكذا آل إليه ذلك القصر الذهبي . ثم التحق أبوك بخدمة أبي وصار حارس الباب ، وكان عليه أن يقف لدى الباب ليل نهار ؛ وولدت أنا في ذلك القصر ، وكنت في سن الخامسة عشرة حينما أمطرت السماء ذات يوم ماء في درجة الغليان ، فذاب القصر بفعل المطر ونشأ في موضعه إقيانوس من الماء الأجاج ، وما لبث أن اجترفنا التيار ، غير أنا بذلنا جهوداً لا يمكن وصفها وتمكنا نحن الأربعة من الوصول إلى الشاطىء

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ولما أجلنا الطرف فيما حولنا رأينا وياللدهشة ما رأينا أننا في مطبخ . ونظرت إلينا الطاهية نظرة فزع كما لو مسها الخبل . وحاولنا المستحيل لنقنعها بأننا بشر مثلها ولسنا من الجان . فقالت أخيراً :

ما أبدع هؤلاء البشر الذين يخرجون من ماعون يغلي فيفزعونني . وسألناها الصفح وقلنا لها : ما كنا نبغي أن يصبح مصيرنا إلى الماعون ، فمذ خمسة عشر عاماً كنا نسكن في قصر فخم مشيد بين أحشاء بعوضة

وما إن أدركت الطاهية ذلك حتى صاحت :

وي ! الآن أذكر أن بعوضة عضتني منذ خمس عشرة دقيقة ، وهاهو أثرها . ولما آلمتني عضتها أرقت دمها وسقطت نقطة منه في الماعون ، ولم أكن لأعرف أنكم بقصركم ضمن هذه النقطة

وقال أبي : أيتها المرأة الطيبة القلب ، الآن يمكننا أن نفقه سر وجودنا في الماعون دون قصد ، وذلك بعد أن ذكرت ماذكرت ، لم تكن سنواتنا الخمس عشرة إلا دقائقك الخمس عشرة . وهكذا تحققت لي هذه القوة والعظمة في خمس عشرة دقيقة ، وإن كان لي من العمر خمس وعشرون سنة فاني في الحقيقة لا زلت في سن العاشرة

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ولما أن خرجنا من جوف البعوضة علمنا أننا كنا نسكن ناحية أخرى غير التي نسكنها الآن . وافتتح أبي هنا ، وكان من قبل وزيراً ، متجراً وكنت أساعده في عمله ، إلا أن جو المكان لم يوافق صحة أمي بحال . فلما قضت نحبها حزن عليها أبي حزناً مبرحاً ولم يستطع . وقد فقد كثيراً من قوته أن يجابه الحياة عقب ذلك المصاب الجلل . فلما مات توليت بنفسي شئون التجر . ولقد تعلم ياشاه درجي

علم اليقين قدر انتعاش التجارة على يدى . هذه قصتى ...

والآن اقصص على يا شاودهرجى ما شئت

الفلاح — يا شاه جى إنك لصادق فى قصتك كل الصدق . والآن استمع إلى قصتى التى لا تقل عن قصتك صدقاً

كان جدى الثانى أغنى فلاح فى القرية وكان جميل الطلعة معتدل القامة واسع العلم ذكي الفؤاد ، محبوباً أينما حل، يتسارع إليه كل ذى غرض ، وكان يسدى المعونة إلى فلاحى القرية عند الحاجة فيقدم إليهم مواشيه ورجاله ، وكان يحكم بينهم بالقسط إذا ماجاءوا إليه متخاصمين . ولم يكن ليأخذ أجراً مادياً على ما يؤديه لهم من خدمات . فقدره الملك حق قدره وأفاض عليه من الأوسمة أعزها ، وكان إلى ذلك كله أعظم من بيهم ورستم [1] ولهذا لم يجرؤ مخلوق أن يعترضه فى شىء

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وحدث مرة أن أصيبت قريتنا بالمجاعة بعد أن حبس عنها المطر وجفت البرك والآبار والأنهر ، وقل علف البهائم فماتت زرافات ووحدانا . ولما رأى جدى الثانى ذلك أعمل الفكر ودعا الفلاحين جميعاً إلى حفل ثم قام فيهم خطيباً وقال :

إخواني الأعزاء

أردت أن أعرض عليكم اقتراحاً لا ريب أن فيه نجاة لكم . وهأنذا أطلب إليكم أن تتركوا لي أرضكم كافة قدر نصف سنة وأنا كفيل بفلاحتها وسوف ترون رأي العين أن نتاجها سيصير وفيراً ومن ثم لن تبقى لنا بعد اليوم شكوى

فوافقه الفلاحون على رأيه ، وشكر لهم جدى الثانى قبولهم اقتراحه شكراً جزيلاً ؛ وبدأ يستعد للعمل، ودفعة واحدة حمل القرية بأكملها فوق رأسه

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وانتقل والقرية بأكملها على رأسه من موضع لآخر باحثاً عن الماء فاجتاز العالم بأجمعه وكان كلما وجد مطراً استسقى الأرض . وبقى على هذه الحال ستة شهور حرث خلالها الأرض وفلحها وزرعها وجاء المحصول عظيما لا مثيل له ، فقد بلغت عيدان القمح والأذرة من العلو درجة لامست فيها عنان السماء .

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وكانت كل حبة من حبات القمح والأذرة فى حجم رأسك .

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وهرع الناس من كل فج عميق تسأل جدى الثانى أن يبيعهم غلالا .

وكان الفلاح والتاجر قد وصلا فى هذه اللحظة إلى المدينة ، وتابع الفلاح قص حكايته فقال :

وكان الجد الثانى لك فى حالة من الفقر يرثى لها فعطف عليه جدي الثانى ووكل إليه بيع الغلال

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وكان لا عمل لجدك الثانى إلا أن يزن الغلال طيلة يومه . ولكنه لم يكن موفقاً فى عمله فكان مرة يطف الكيل ومرة يبخسه . ولزاما لذلك كثيراً ما كان يُشعر جدى الثانى جدّك الثانى بيده القاسية تهوي على مواضع من جسمه

(١) هما شخصيتان خرافيتان فى الأفاصيص الهندية لا مثيل لهما فى القوة والجبروت

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

وكانا قد وصلا فى هذه الساعة إلى مكتب المرابى فحييا وجلسا . ثم استأذن الفلاح المرابى فى لحظة . ثم تابع حديثه مع التاجر

الفلاح — ولما بيعت كل الغلال لم يبق لجدى الثانى حاجة إلى جدك الثانى فصرفه . ولسوء حظ جدك الثانى وقع مرة أخرى فى ضنك أتعس من الحالة الأولى ، فجاء إلى جدى الثانى وطلب إليه أن يقرضه مئة روبية فأعطاه جدى الثانى المبلغ المطلوب لساعته لما عرف عنه من طيبة القلب

التاجر — هذا عين الصدق يا شاودهرجى

وعندئذ قال الفلاح بصوت يسمعه المرابى :

إن جدك الثانى لم يف هذا الدين

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجي

الفلاح — ولم يحاول جدك الأول ولا أبوك إيفاء هذا الدين

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

ثم إنك أنت حتى الآن لم تف دينك هذا

التاجر — هذا صحيح

الفلاح — وأصبحت المئة الروبية بعد انقضاء خمسين عاماً وبعد ضم الفوائد إليها ألف روبية . ولهذا فأنت مدين لى بمبلغ ألف روبية

التاجر — هذا ... ... هذا صحيح

الفلاح — والآن وقد اعترفت أمام المرابى بالدين الذى عليك أرجو أن تتفضل بدفع هذا المبلغ توا حتى أستبق لى أرضى

وذهل التاجر كمن انقضت عليه صاعقة . وما كان فى وسعه أن يتنصل من كل ما ذكر ، فقد اعترف صراحة بالدين أمام شخص ثالث ، وإذا ما عارض الفلاح فى كلامه فقد يتحتم عليه أن يدفع الجزاء المقرر وهو ألف روبية كما اشترطا بادىء ذى بدء ، ثم عليه وقد اعترف بالدين أن يدفع إلى المرابى ألف روبية أخرى

ومهما قلبت المسألة على مختلف وجوهها فقد كسب الفلاح الماكر المعركة ، ولم تعد للتاجر حيلة ، فأخرج كيس نقوده وهو يتميز من الغيظ وقلبه مفعم بالأسى ودفع إلى الممول الألف الروبية .

وعند ما افترقا قال الفلاح لصاحبه :

يا شاه جي ، يضحك كثيراً من يضحك أخيراً .

فقال التاجر — هذا صحيح

واندفع فى طريقه وحيداً لا يلوى على شىء

ابراهيم ابراهيم يوسف

تاريخ الأدب العربى

الأستاذ أحمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

فى حوالى ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربى منذ نشأته إلى اليوم

فى صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب